مداخلة الدكتور نادر سراج في المعهد الألماني للأبحاث الشرقية

رأبُ القطيعة بين التاريخ والعلوم الاجتماعية وتحولاتِ المجالِ العام هما الانشغالُ الرئيسُ للمتداخلين الثلاثة المجتمعين اليوم حول كتاب **المدن الأقطاب الأربع في لبنان**، بدعوة كريمة من مهد الاستشراق الأوروبي، بوجهه الألماني المتألق. فالزميل والصديق د. خالد زيادة سبَّاقٌ في خوض مسائل حداثة المدينة العربية، انطلاقًا من "ثلاثيته" الموسومة "مدينة على المتوسط"، وصولًا إلى "المدينة العربية والحداثة ". ترسَّمَ القرَّاءُ خطاه على دروب طرابلس عبر: يوم الجمعة، يوم الأحد؛ وحارات الأهل، جادات اللهو؛ وبوابات المدينة والسور الوهمي. وكاتبُ هذه السطور خاضَ تجربتَي "بيروت في الحفظ والصون"، الجَماعية الطابع، و"أفندي الغلغول شاهد على تحولات بيروت خلال قرن (1854- 1940) ". فساهم بلَبِنة في مسار التاريخ الاجتماعي لبلده. وهاهو زميلنا المؤرّخ الدكتور عبد الرؤوف سنو، اللبنانيُ الانتماء، والبيروتي الهُويةِ والمقام، بمعانيها الرحبة والانفتاحية، يعدِّلُ أشرعَته البحثية، ليبحرَ في عُبابِ مدنٍ أربع، تنتظم في حناياها بعضًا من تاريخ بلدنا ساحلًا وداخلًا.

كدأبه في معظم مؤلَّفاته، يمارسُ سنو حرفته الكتابية بدراية موصوفة، ليخبرَ القرَّاءَ بأسلوب سهل ومأنوس، أن لفحاتِ التغيير والتمدين أدركتنا وأدركت منطقتنا واستتباعًا مدننا. أربعًا كانت أم أكثر بكثير. ليس هذا هو المهم. لكننا، والكاتب معًا، نغتنم هذه الفرصة السانحة، لنطرح عاليًا، من هذا المنبر الاستشراقي الألماني، الأسئلةَ المنطقية عينَها: أيننا من مدننا؟ وأين مدنُنا منّا؟ هل لا زالت تشبهُنا ونشبهُها؟ وهل صلاتُنا بها في الألفية الثالثة وهنت وبهتت، وبتنا غرباءَ عنها روحًا ومعنًى وهُويةً؟ أم أنها تأصلت وترسخت رغم التشوهات العمرانية والثقافية التي لحقت بها وبآهليها؟ الكاتبُ والكتاب التقطا هذه الإشكالية افترضا وتساءلا، نقَّبا وجمعا، وبحثا واستخلصا. فغذيا أذهاننا، وأمتعانا، وزادانا علمًا بما نعلم، أو ما نظن أننا نعلمه، عن حقائقَ معاشنا في راهنيته مثلما في مجمل أحواله المتبدِّلة.

الانتقالُ الاجتماعي التدريجي للمدن نحو الحداثة هو ما يشغلُ فكرَ عبد الرؤوف سنو. ونشاركه، نحن الباحثون في التاريخ الاجتماعي للمدن العربية، هذا الانشغالَ؛ كلٌ من وجهة نظره ووفق رؤيته وعلى هدي اختصاصه الدقيق. لذا يدعونا في آخر نتاجه (2018) إلى تجديد النظر إلى هوية ووظيفة المدينة العربية عمومًا، واللبنانية تحديدًا. وأربع منها على وجه الخصوص. وهو في مسعاه التأليفي هذا يُوضحُ لقرائه مفهومَ "المدينة"؛ فهي ليست في يقينه مجرّدَ مساحةٍ مبنية، أو عمارةً شامخة البنيان، أو مولًا ومساحاتٍ مترامية الأبعاد للتبضُّعِ والتسكُّعِ قتلًا للوقت، بل حيزًا حضريًا معمورًا بأناسه، مسكونًا بتاريخه، ومتمايزًا بنسيجه الاجتماعي.

عالجَ سنو في كتابه العمرانَ اللبناني باعتباره ثقافةً وأنسنةً وتاريخًا واجتماعًا. تقرأه بتمعّنٍ، فتكتشفُ أن العمرانَ المديني الذي يأخذُ الكاتبُ بناصيتنا لارتياد معالمه والتملّي من جماليات مدنه الأربعة ووظائفها المتداخلة والمتكاملة، عبر 375 صفحة، هو في المحصِّلة رمزٌ لإنسانية الإنسان... اللبناني. غلَّبَ الباحثُ حسَّه الاجتماعيَ والاثنوجرافيَ على السياسي الخِلافي، لكنه ما أسقطه من الحُسبان والمساءلة. وهو متمكنٌ وحِجاجيٌ في هذا الميدان، كما تشهدُ مؤلفاتُه.

وبناءً عليه فهو يلفتُ انتباهَنا إلى أن هذا الإنسانَ الذي يعمرُ الأرضَ متعيّنٌ أيضًا ضمن أطرٍ جيوسياسية؛ أي داخلَ الموطن والمكان وداخلَ الثقافة والحضارة، وفي الزمان. هذه المسلّماتُ المؤتلفةُ العناصر شكّلت الأرضيةَ البحثية والمنارةَ الفكرية التي وظّفها المؤرّخ سنو ليروي لنا بلغة سلسة جوانب حيّة ومعاشة من تاريخ الناس، قاطني المدن، الأفراد منهم والجماعات.

التقط هذه الفرصة ليتباسطَ مع قارئه الكلامَ عن موضوع شيّق ومستجدّ هو **المدن الأقطاب الأربع في لبنان**: بيروت، طرابلس، زحلة وصيدا. أشبعها دراسة وتوثيقًا ووصفًا، وأمدّنا بمعلومات جمّة عن مشاهدها الثقافية الاجتماعية وفضاءاتها الفكرية، وصورٍ وإحصاءات تُظهر تطور ملامحها عبر السنين. وتمثل هدفه بتسليط الضوء على فصول من الإنجازات والتحولات التي عرفتها، مظهّراً تأثيراتها في الانتقال الاجتماعي التدريجي نحو الحداثة، وما نجم عنها من تبعات ثقافية واجتماعية وحتى خدماتية لافتة.

هي إذًا في مؤلَّفه وفي حُسبانه مدنٌ أقطابٌ أربع. لكن الصديقَ جهاد الزين "أعطى الخبزَ لخبَّازه" و"الفضل لذويه"، كما يقولون في سواقي الكلام اليومي. فنعتها باسم الباحث عن حقيقتها والمنقِّبِ عن أوضاعها سابقًا وراهنًا، والمستشرفِ مستقبلها. فصدَّرَ به قراءتي النقدية للكتاب: **مدن عبد الرؤف سنو الأربع** (2018/9/2). عنوانٌ طريفٌ وذو دلالةٍ، ويختصرُ عصارةَ فكرٍ واضعِه. فربطَ المدنَ المُختارة بصاحبِ القراءات البحثية والنقدية الجريئة، والمُغايرة، كي لا نقول المُضادة، للسائد والشائع والمُتعارف عليه.

الكتابُ حمَّالُ أوجه، غنيٌ بطروحاته ومضامينه، وخصبٌ بمنظومة شواهد الإثبات والتغيير التي اتكأ عليها سنو وأحسنَ توظيفها لصالح نصوصه. وهو ضليع وذو باعٍ في هذا المجال. والوسمُ الذي حمل الكتابُ جامعٌ مانعٌ، ولافتٌ وإشكالي في آنٍ. لذا استدرَّ تساؤلاتٍ بعضُها محقٌ، يصدر عن وجهة نظر علمية معينة، ويستدعي إجاباتٍ من واضعه. وبعضها الآخر متسرّعٌ ومتجنٍ، ويعكسُ رؤى ملتبسة وتشكيكية عند قراءٍ توقفوا حصرًا عند "مناطقية" و"جهوية" العنوان، لا مضمون الكتاب ومنهجه وأدواته البحثية المعتمدة. فشفَّروا العنوانَ على قاعدة "لا تقربوا الصلاةَ..."! ولِلعِلم فالكتابُ الذي نصرفُ سنيَّ العمر في إنجازه، ليس "مكتوبًا يُقرأُ من عنوانه"!

الزميل والأستاذ الجامعي، المعروف برصانته العلمية وحسه النقدي، لم يخطئ العنوان. فهو يمَّمَ بملء إرادته، وبما تبصَّرَه بثاقبِ نظره، صوبَ هذه الحيزات الحضرية التي انتقاها على سبيل المثال لا الحصر. موضوعية مقاربته للمسألة المدينية جعلته ينحّي جانبًا انتماءه لبيروت، مسقط رأسه. وكما اعتاد في تدريسه ومحاضراته ومؤلفاته، فقد نأى بنفسه عن منازع الهوى المناطقي "الفاقع" الذي يعصفُ هذه الأيام بكثيرين؛ قراءَ كانوا أم حملةَ أقلام، أم مدرّسين، أم خبراء استراتيجيين، وما أكثرهم اليوم.

تقصى معطياته وعاين مشاهداته ونخلَ مسموعاته، فوجد أنها تختزنُ تراثًا عمرانيًا وقيمًا إنسانية، لمدنٍ تنكَّبت أدوارًا في تاريخ البلاد والمنطقة. مدنٌ تحمل سماتٍ تفاضلية تؤهلها لتكون محورَ دراسة علمية موثقة، لما تعرفها مكتبتنا العربية. ثمة غيرُها بالطبع، لكن الباحثَ منا مضطرٌ في المحصِّلة للانتقاء والاصطفاء، واختيار ما تتوافر المعطياتُ والشواهد وأنسجة الإثبات ذات الصلة بخصوصه.

وحسنًا فعل. فالمدنُ المختارة، بذاتها ولذاتها، وبما تختزنه من قيم روحية، وبنى ثقافية اجتماعية، ونشاطات اقتصادية وخدماتية، وأنماط سلوكية، وتراث مادي وشفهي، ائتلفت في متن الكتاب، لتخبّر عمَّا اعتدنا مصادفته، ممارسته، معايشته؛ لكننا ما قرأناه، أسود على أبيض، كما في متن الكتاب.

الكتابةُ عن المدينة والاستبصارُ عن تجاربَ حداثتها ومفاعيلها على مختلف الصُّعد والآماد، فعلت فعلها في الوسط الثقافي اللبناني. فأثارت ولا تزال سلسلة أسئلةٍ واجبةَ الوجود. وحرَّكت سكونيةَ النظرة التقليدية لحيّزاتنا الحضرية، من بيروت إلى طرابلس، ومن زحلة إلى صيدا. والبقية تأتي لاحقًا؛ إن بمسعى من سنو نفسه، أو بمبادرة من زملاء آخرين.

فضاءاتُ المدن الرحبة شكلت ميدانَه البحثي المفضل الذي منه غرفَ جملةَ معطياته. بأمِّ العين وعلى مدى عقود مديدة، شاهدَ كاتبُنا تبدلاتِ مدينته وتحولات مجالها. قارنها بما طرأ على شقيقاتها، مدن الساحل والداخل. قرأها بعيني المؤرخ، واستعار منطق الأنثروبولوجي و"عِدَّة شغلِه"، لينقِّب ويعاينَ. أصاخَ السَّمعَ، لرواته ومحاوريه، ثمَّ قرأَ وقارنَ، واستخلص. فكتبَ، وقرأنا وها نحن نناقش بصوتٍ عالٍ.

مدنُ الساحل والداخل، الأربعة، المتقاربة والمتعانقة ولو عن بعدٍ مكاني لا علائقي وطيد، المشمولة بالدراسة، لم تُخلِف الميعاد الذي ضُربَ لها لتُظَهِّرَ صورتَها عن ذاتها وعن رموزها، مثلما عن تبدّل أحوالها، وتقلّبات الأزمنة العثمانية وتلك الانتدابية الفرنسية وصولًا إلى الوطنية الاستقلالية على مجريات حيواتِ أبنائها وقاطنيها. ائتلفت أخبارها ونشاطاتها في متن الكتاب، بما فيها الجانب الثقافي الذي لا يحظى عادة بالاهتمام المطلوب والمأمول.

جديدُ الكتاب، وخاصة في ما اتصل ببيروت العاصمة، هو في تخصيصها بفقراتٍ مسهبة وموثقة تناولت معالمَ نهضتها الثقافية وصنويها الفنية والصحافية. المكوّن الثقافي حلّ بتميّز في صدارة المشهدية التي خصَ الكاتب بها كلَّ مدينةٍ على حدة. تألّقُ بيروت الثقافي منذ مطلع القرن الماضي كان موضعَ اهتمامٍ مشكور. فذكّرنا بكوكبة من الأسماء اللوامع، من الجنسين، التي برزت في ظل نهضة مسرحية وفورة سينمائية وتوهّج إعلامي، وانفتاح فكري، دمغ بيروت ببصمته، وأتاحَ لها أن تكونَ الحاضنة الرئيسة لتفتّح مواهب العديد من فنانات وفناني العرب وصحافييهم ومثقفيهم الذين لطالما جمعت شملهم وبلورت أفكارهم مقاهي ومطاعم بلسّ والحمرا والروشة. والثقافات الناشئة بفضل انتشار مطاعم ومقاهٍ ذات صبغة "سياسية" و"ثقافية" و"فنية" و"شبلكية".

حسنًا فعل صديقنا المؤرّخ سنو في تنشيط الذاكرة الوطنية بجرعةٍ معرفية واجبة الوجود في حاضرنا المأزوم. فأعاد تظهير الصور الحقيقية المشرِّفة لقطع "بازل" حضرية تألقت ولا تزال، هي وأخواتٍ لها، على خارطة الوطن. الصورُ الزاهية لأحوالنا التي رسمها بالكلمة والصورة والوثيقة، والفكرة التي تنتظمها، دغدغت أحلامنا إلى حينٍ. ذكّرتنا بجماليات الأمس المنصرم وإنجازات أهله. هم ناضلوا وواجهوا وأسسوا واستثمروا واستقطبوا، وجهدوا لبناء صورة مشرّفة لذواتهم ولبلدهم ولحيزاتهم الحضرية الممثلة هنا بمدنهم الأقطاب الأربع. أفلحوا في مسعاهم ووفق إمكانياتهم المتاحة، كما يخبّرنا الباحث سنو، لكنه يدعنا نكتشف من خلال استنتاجاته أننا أخلفنا الميعاد وتناسينا الإيفاء بوعد المتابعة لاستكمال المسار الحضاري والحضري لمجتمعاتنا.

نستدركُ وإياه أن ألوانَها بهتت أو تكاد، كما طاولَ الخرابُ بعض معالمها وهياكلها فدُمّرت خلال سنوات الحرب والفتنة ومعاركها المتنقلة. وخارطةُ الطريق العمرانية التي عبّدوها في حنايا الوطن ونثروها في

ربوع مدنه وبلداته وقراه، وتركوها لرخائنا الاجتماعي، تعثّرت وتأخّرت بفعل تبعات الاقتتال الداخلي وسواه من المعوّقات، فلم تصل إلى برّ الأمان، ولم تقفل الحكاية بخواتيمها "السعيدة". تبدلُ الأحوال، وتقلُّب الأيام جعلا صفتي التعاسة والمرارة تبزَّا سمتي السعادة والرخاء، والنتيجةُ تمثلت بتراجع المدن، واجهة البلاد، مكانةً ووظيفةً بحكم تمدُّد نزعات "الترييف"، وبفعل سياسات الإهمال الخدماتي المتمادي.

وللحقيقة سينادي كثيرون – همسًا وجهرًا وعلى الشابكة أيضًا- بأن ثمة مدنًا غير هذه "الأقطاب الأربعة" تستأهلُ الكتابةَ، وترصّعُ بدورها خارطةَ الوطن، ويتباهى أهلها بتاريخها وحاضرها وإنجازاتها. ومن معرفتنا الوثيقة به فهو سيتقبّل هذه الملاحظة وسواها بطيبة خاطر الباحث الساعي لاستكمال معالم مشروعه التأريخي الشمولي لمدن بلاده وبلداتها ودساكرها. لكن لسان حاله يقول إنه آثرَ الاستهلالَ بِسيرِ هذه الأقطاب التي انطلقت من حنايا بيروت القلبَ باعتبارها المبتدأ والخبرَ في كيان الدولة الاستقلالية، والسيرة لم ولن تغيّب الأطرافَ، بوصفها السّندَ الحامي للكيان ومُفتتحَ الحكاية التي نتمنّاها تكتملُ فصولًا في مؤلّفاتٍ مقبلة.

وكي لا نلقي العبءَ على كاهلِ باحثٍ بعينه؛ حبذا لو يفتحُ الكتابُ الشهيةَ البحثيةَ لزميلاتٍ وزملاء آخرين، يخوضون غمارَ هذا المجال البحثي المديني، ويثرونه بتجاربهم، ومن وجهاتِ نظرٍ مغايرة. فنطلعُ قريبًا على أوعيةِ نشرٍ تُكمِلُ المشوارَ، حاملة في ثناياها قيمًا معرفية وعمرانية مضافة، ومثيرةً أسئلةً وجودية كبرى عن معاني الحداثة وتمظهراتها ومآلاتها، كما هو حال **"المدن الأقطاب في لبنان"**. وهي إن أحسنا الاستعارة "رباعيةُ الدفع"، بالمعنى المجازي؛ أي قوةً واندفاعًا مُحرّكَينِ للعقول، وتأثيرًا وانسيابًا مفهوميًا مُحفِّزين للقرائح والأقلام، وناقلًا أمينًا جمهورَ القرَّاء المهتمين إلى برِّ الأمان المعرفين للتملي من أحوال مدننا مطلع الألفية الثالثة.

وبكلمة، فرحابةُ وآنيةُ الموضوع، المُثارين بأسلوبٍ علمي سلس، وبلغةٍ بينة ومفهومة وسهلة المقروئية، مقرونةٍ بشواهدَ إثباتٍ وتغيير، ومُكلَّلةٍ بجهد توثيقي واضح، تسهّلُ تداولَ الكتاب، وتجعلُ منه موضعَ ترحيب وإقبال عند جمهور القرَّاء، على ما نرجو، ويأمل واضعه عبد الرؤف سنو، العميد السابق لكلية التربية في جامعتنا الوطنية.